ان المملوك واقاربهُ ملتزمون بحفظ ثغر بيروت المحروسة وهم مجتهدون في خدمة مولانا السلطان خلَّد الله ملكهُ وان غالب اقطاعاتهم التي يضعون الايدي عليها هي من املاكهم الثابتة بالشرع الشريف وهي معهم الآن بعدَّة ثلاثين فارسًا وكانت لآبائهم (١ المماليك بثلاثة ارماح الى حين أُقطعت املاك الجبلية . وأما رُسم بكشف البلاد تميَّز فيها الذي كان المماليك يوفرونهُ بسبب الرجال الذين يُساعدونهم على حفظ الثغر . وانهُ متى دخلت هذه الاملاك (42 في الدوك تملك المماليك ولا ينتفعون بغيرها لانها مساكنهم وبها رجالهم ومشيرتهم . وسؤالهم من صدقات مولانا ملك الامراء ان يتصدَّق عليهم بمطالعة على يد المملوك الى الابواب الشريفة . وبها اقتضاهُ رأي مولانا ملك الامراء من إلزامهم بزيادة عدَّة تحملها طاقتهم التزمهُ المماليك وما لهم الَّا الله تعالى ومراحم مولانا ملك الامراء عزَّ نصرهُ أنتهى الحالُ والرأيُ اعلى وامضى والحمد لله وحدهُ »

وجواب هذا الكتاب مكتوب في جانب الرسالة السابقة في الهامش وهو : « اذا كملت الاوراق والكشوف ولم يتولَّها عائق تُكتب على يدكم مطالعة بصورة الحال وتتوجَّهون الى الباب الشريف وبما يرد به الامر المطاع يكون الاعتماد عليهِ »

ثمَّ قصد ناصر الدين التوجُّه الى مصر على الساحل . فأخبر علاء الدين بن معيد نائب الشام انَّ امير الغرب توجَّه الى الباب الشريف ليقضي شغلهُ بغير رخصة ملك الامراء . فرسم هذا بابطال توجُّه ناصر الدين الى مصر وكتب لهُ مطالعة الى السلطان ذكر فيها قِدَم املاك امراء الغرب فرسم السلطان انَّها تستمرّ بايديهم وانَّ الذي زِيدَ فيها يزاد في عدَّة الجند نظيرهُ . فوجدوهُ النصف فحضرت المناشير بمضاعفة العدَّة وهي اثنان وستون جنديًّا (ستأتي البقية)

السفر العَجَب الى بلاد الذهب

للاب اميل رينو اليسوعيّ (تابع لما سبق)

وكان وكاب الدرجة الرابعة على الباخرة الافرنسية المدعوة « كونتو » عديدين جدًّا حتى

١) كذا في الاصل ونظنهُ الصواب يريد انَّهم كانوا يتَّخذون هؤلاء الترسانَ للأُبَّة وشرف الإمرة . وجاء مثل ذلك في تاريخ المقريزي . وقد رُوي في اخبار الاعيان : « وكانت لآبائهم »

كانوا كالبناء المرصوص بعضهم فوق بعض وجميعهم جالسون تحت خيمة من النسيج الغليظ لا تتيهم تغيرات الجوّ. فلما نزل فاضل الى الباخرة انخرط في سلكهم وجلس بينهم وكان قد تزوّد معهُ بعض رؤوس من البندورة النجة فاخذ يقطعها بيديهِ ويأكلها مع الخبز. ووقتما اقلعت الباخرة حوّل نظرهُ الى بيروت فرأى لها من البحر مشهداً بديعاً يفتن العين كيف لا ودورها البيضاء كانت تبين كصفوف بعضها فوق بعض ونور الشمس الضارب عليها يزيدها جمالاً ورُواء. ثم تطلّع الى بعيد فشاهد جبال لبنان والضباب واقفاً على قممها كانهُ يصوغ اكليلاً منيراً فوق جبالها العالية. وامعن النظر فيها فرأى القرى منبثّة في جوانبها فاعجبهُ هذا المنظر كثيراً وقد لمت لعينيهِ من بعيد قرية غزير وسرّح الطَّرْف في جنينة وأبنيتها الجديدة يعلو فوقها قصر بكركي كرسي البطريركية المارونية ثم بكفيا وبرمانا وبيت مري وعاليه وغيرها من القرى

وقد مرَّ أنَّ محبة الذهب اعمت بصيرة فاضل فضحّى من اجلها لذّة الحياة وسعادة العيشة العائلية وهدوء الفكر. ولشتّان بين بيتهِ في القرية على حقارتهِ وبين الباخرة التي كان الركاب فيها بازدحام كلّي وليس منهم من يستطيع ان يتحرك او يتنفس على هواه

ففي بيته كانت لهُ غرفة صغيرة حسنة المنجور ولم يكن الهواء ليدخلها وقت هبوبهِ ولا ينفذ المطر من سقفها لان سطحها كان مرصوصاً جيداً. امّا في الباخرة فكانت الريح تتلاعب ايّما تلاعب بالخيمة التي لجأ تحتها عدد عديد من نساء واولاد وشيوخ وشبّان. وكان الاولاد يبكون ويصيحون خوفاً من زئير الامواج وقعقعة آلات البخار والأمهات يجمعنَ بعض اسمال ويرقدنَ اطفالهنَّ عليها ناهيك عمّا تجمّع في ذاك المحل من الاوساخ والاقذار مدة عشرة ايام وعشر ليال متوالية قضاها الركاب على ظهر السفينة

هذا مع ان الوقت في اواخر تشرين الثاني يكون جيداً والطقس معتدلاً. فماذا يترى كان يحلّ بهم لو سافروا في ايام الشتاء في حين ان المطر يتساقط على تلك الخيمة التي ينفذها الماء وامواج البحر في هياج والريح في زئير. فان فاضلاً رغماً عمّا هو متصف بهِ من القوة والعافية قد تندّى بالعرق البارد واصطكّت رجلاهُ واصابهُ هدامٌ شديد كاد يخرج قلبهُ من صدرهِ مع ان البحر لم يكن مضطرباً اضطراباً يُعتدُّ بهِ. ومرّ في تلك الاثناء احد النوتية فلما سمع شهقة دفعهُ الى طرف المركب

وظلّ فاضل على هذه الصورة بينما كانت السفينة تواصل مسيرها. ولما وافى الليل

قوي على الانسحاب الى الحصيرة التي كان قد افترشها فرقد عليها وهو يتفكر في الفراش الذي كانت تمدُّهُ لهُ والدتهُ كلَّ مساء في بيته

ولمَّا طلع صباح اليوم التالي رست السفينة تجاه يافا فافاق فاضل مترجماً متألماً. وبعد هنيهة طلع اليها عدد من اليهود ومعهم كثير من البضائع القدسيَّة واخذوا يعرضونها على المسافرين ليشتروها. وكان مع فاضل ايضاً شيء من هذه البضائع غير انَّهُ كان قد اشتراها من بيروت قاصداً ان يبيعها في اميركة كأنَّها صادرة من الارض المقدسة. فعندها بكتهُ ضميرهُ على الخدعة التي ازمع ان يغشَّ بها المسيحيين في العالم الجديد ولكنهُ ما لبث ان اطمأنَّ وصار يحدِّث نفسهُ قائلاً اي فرق بين ان تكون البضائع من القدس او من بيروت او ليس ان بيروت قريبة جدًّا من فلسطين بالقياس الى اميركة. وبعد هذا وهذا ألا يسوغ للمرء ان يستعمل الوسائل الكافلة بتحصيل معاشهِ

ولكن يا لشقاء فاضل فانَّهُ كان كلما ابتعد عن بيروت تنطفئ في نفسهِ انوار الشواعر الشريفة والعواطف الحقَّة ولو انهُ نظر وقتئذٍ الى المستقبل نظرة رجل حرّ لكان وجع عما هو بصددهِ ولآثر ان يعيش في قريته على ان يتذرَّع الى تحصيل اسباب المعاش بالخديعة

ومرَّ عليهِ ذاك النهار بالضجر والسأم غير انَّهُ لمَّا انتهت الباخرة الى بور سعيد واخذت تسير على مهل بين ضفَّتي القناة تمكَّن من التجوال على ظهرها بسكينة واطمئنان وما مضت مدَّة يسيرة حتى وصلت الى مياه الاسكندريَّة وحينئذٍ ساقها مدير السُّكَّان في المضيق المؤدي الى الميناء وهناك قبل ان ترسو بل قبل ان يكفَّ الدولاب عن الحركة رقي اليها على الحبال جماعة من الحمَّالة خلتهم كقرصان البحر وقتما يهاجمون مركبًا عدوًّا وكان لهم صياح وعياط يشقّ الآذان امَّا فاضل فتريَّث وبينما هدأت الحال وعاد النظام الى مجراهُ فركب زورقًا ونزل الى الاسكندريَّة ليتفرَّج في شوارعها ويشاهد بناياتها فأوَّل ما رأى منها شارعان عريضان لم يقع بصرهُ على مثلين لهما في بيروت

فاخذ يجول فيهما ويتعجب ممَّا ضمَّا من المخازن الجميلة التي لم يكن يشبع من التطلُّع فيها ولذلك كان المارَّة يصدمونهُ في مسيرهِ ولم يكن هو ليرفع نظرهُ منها. ولقد زاد افتتانهُ وتعاظم عجبهُ ودهشهُ لمَّا صار امام القهاوي الكائنة في الساحة المعروفة بساحة رشيد لكونها شبيهة بقصور يتدفَّق منها الضياء بما فيها من المرائي البلُّوريَّة والصور البديعة والثُّريَّات الانيقة التي تنعكس منها الالوان المختلفة وحينئذٍ بانت لهُ حقارة القهوة المنشأة في

قريته حيث كان يجلس احياناً ليتناول كأساً من العرق. وبعد ان تردَّد طويلاً دخل احدى تلك القهاوي وجلس فيها الى جانب احدى الطاولات فما وقعت اعين الجالسين هناك عليهِ حتى عرفوا من هيئته انهُ مبهوت وأخذوا يضحكون عليهِ في سرّهم

وما طال الامر حتى وفد عليهِ خادم حسن اللباس نظيفهُ فقام لهُ فاضل فهمَّ الخادم بالضحك ولكنهُ امسك نفسهُ وقال: لقد اخطأتَ يا خواجه ولعلك قاصد غير هذا المحل وأشار لهُ باصبعهِ الى شارع ضيّق يؤدي الى قهوة يجتمع فيها العتالة ومن شاكلهم للتدخين بالنارجيلة. فتنحى فاضل وهو تاكس الرأس خجلاً وفهم ان ملابسهُ الحسنة لم تكن لتؤهلهُ للجلوس بين اصحاب الكُسى الافرنجية. ومن ثمَّ عزم ان يستبدلها في ثاني يوم خالعاً عنهُ آخر اثر يدلّ على اصلهِ اللبناني وهكذا يصير كبقية القوم المتمدّنين ويحقّ لهُ الجلوس في تلك القهاوي بلا معارضةٍ وما درى أنها عجلة لدمار الصحة وفناء الاموال

ولما خرج من القهوة ذهب هائماً على وجههِ وهو حزين القلب كاسف البال واخذ يتنقّل من شارع الى شارع ومن طريق الى أخرى دون ان يهتدي للرجوع الى المرفإ. وخاف فوات الوقت فسأل احد المارّة ان يرشدهُ الى مطلبهِ فاجابهُ الى ما سأل ببشاشةٍ وما زال يمشي امامهُ حتى اوصلهُ الى الرصيف. وحينئذٍ طلع الى الباخرة وكان الجوع قد اثّر فيهِ فتناول رغيفاً ورأساً من البندورة واخذ يأكل بنهم وهو يتأمل في تقلبات الحياة وحوادث الدهر

وصباح الاثنين رفعت السفينة مرساتها وأطلقت بخارها ومخرت العباب سائرةً في وجهتها وانقضى ذاك النهار على وكاب الدرجة الرابعة بصفاء وسرور. ولكن ما طلع صباح الثلثاء حتى جرى حادث مزعج اورثهم مزيد الكدر وهو ان امرأة سورية كانت في جملة الركاب المسافرين الى اميركة طلباً للرزق قضت نحبها على ظهر الباخرة. وكان فاضل قد شاهدها قبل يوم وفاتها وتحدّث معها في امور المستقبل فعظم عليهِ مصابها واخذ يتأمل باسف في جثتها وهو حزين على موتها بعيدة عن الاهل والاصحاب الذين لم يكن منهم هناك احد حتى يغمض عينيها لاسيما لما عرف ان البحارة سيدرجونها في كفنها ويرجّونها في البحر ليكون مدفنها

وبينما كانت الافكار تتجاذبهُ والهواجس تتنازعهُ مرَّ ربّان الباخرة وعلى وجههِ امارات الاهتمام وتلاهُ الطبيب فجسَّ تلك الجثة الباردة وبعد فحصها حكم بان علّة الوفاة كانت

حتى سريعة رافقتها قلة العناية واتعاب السفر. وأقيم بعض النوتية كخفر فمنعوا كل مواصلة بين مقدم المركب ومؤخره حتى لا يعلم الركاب بما جرى. ثم اقبل الليل وكان شديد الظلمة بما انتشر فيه من الضباب الكثيف فخاط النوتية كيساً ضيقاً وادرجوا فيه جثة السورية المسكينة وحملوها الى حافة الباخرة فحينئذٍ تقدم الربان وكشف النوتية رؤوسهم واتفق وجود مرسل افرنسي كان عائداً الى فرنسة فبادر الى المحل ليبارك الجثة وبعد ان تلا بعض الصلوات ورسم اشارة الصليب صفر احد النوتية فوضعت الجثة على لوحة وعُلقت في الرجل كُرَة من الرُصاص وأُلقيت في مياه البحر التي انفتحت لابتلاعها ثم انغلقت عليها الى الابد

وبعد ان حضر فاضل مع سائر رفقائه الركّاب هذا المشهد المحزن جلس تحت الخيمة وشخص ببصره الى المياه وجعل يغوص في بحار التأملات ويقول في نفسه ما يُدريني اذا كنت ألاقي منيّتي في السفر ويكون حظي كحظ هذه المسكينة فتطرح جثتي في المياه فتتقاذفها الامواج وتصير طعاماً للاسماك والحيتان. آه ياليتني لم اركب البحر ولم افارق بيتي

ثم زادت اشجانهُ وخنقتهُ عبراتهُ لمَّا خطرت على بالهِ والدتهُ وأخذ الخيال يمثلها لعينيهِ كيف انها تنتظرهُ مساء كل يوم عند منعطف الطريق وكيف تدخل بيتها منقبضة القلب لفراقهِ وكيف تصرخ وتولول وتمزّق ثيابها اذا ما انتهى اليها خبر وفاتهِ فتلوم نفسها على ترخيصها لهُ بالسفر وتندبهُ وتعدّدهُ وتجمع حولها نساء القرية فيمزّينها فتأبى ان تتعزّى لخسارة فلذة كبدها

واستمرَّ فاضل جالساً على ظهر السفينة حتى نصف الليل وهو في ذفير وشهيق من جراء تذكار والدتهِ

وكانت قد هبَّت الريح في بادئ الامر ضعيفةً ثم اشتدَّت وعصفت في وسط الظلمة سيوف البرق وقصف الرعد وثارت الامواج واخذت السفينة تصعد جبلاً وتنزل في وادٍ. فحينئذٍ خاف الركاب خوفاً عظيماً وايقنوا بحلول الأجل وتضرَّعوا الى الله من اعماق القلب ان يصرف عنهم هذه الشدّة وتعاظم عويل النساء وصراخ الاطفال. ومع ذلك كانت الريح تشتدّ هبوباً وامواج البحر غلياناً وفوراناً حتى تمزّقت الخيمة التي كانت تظلل فاضل ورفقاءهُ وانكسر قسم من الدرابزين فسمع لانكسازه صوت هائل.

واستمرّت العاصفة يوماً كاملاً فلمّا هدأت قليلاً عاد فاضل الى رشده بعد ان كان الخوف قد بلبل دماغهُ والتفت الى الصندوقة التي كان قد ملأها بضائع من بيروت فلم يرَها لأنها سقطت في البحر بسقوط الدرابزين الذي كانت موضوعة الى جانبه. فشكا امرهُ الى الرّبان فاجابهُ ان الشركات ليست مسؤولة فيما يقع من الحوادث بالبحر ولقد اخطأتَ في وضع صندوقتك حيث وضعتَها. فنامت عينا فاضل بالدمع فتركهُ الرّبان ومضى وهو يزّ كتفيه استهزاء

فلمّا رأى هذا اللبناني المسكين ان لا دواء لمصابه تجلّد وقال في نفسهِ لا بُدّ من الصبر على مضض الايام ومن كان صاحب عقل وتمييز يجد من الشدّة مخرجاً وفي البلاء فرجاً ولكم وقع غيري في ما وقعتُ بهِ فلم يقنطوا ولم ييأسوا

ثم تمدّد على ظهر الباخرة بين الصندوقين اللتين بقيتا لهُ ونام تلك الليلة نوماً ثقيلاً وبزعجاً وتكاثرت عليهِ الاحلام فرأى والدتهُ وشقيقتهُ وردة لابستين ثياب الحداد وجالستين وحدهما في البيت وهما تناديانهِ باسمهِ وتندبانهِ. فبينما هو يهمّ بمجاوبتهما افاق واذا بهِ لم يزل على ظهر السفينة الذاهبة الى بلاد نائية وجهات سحيقة لا يعرفها

ولمّا طلع صباح السبت بانت سواحل فرنسة بعد ان كانت الباخرة قد دارت حول كورسيكا اجتنابًا للمرور في مضيق بونيفاسيو فاهتزّت افئدة النوتية فرحاً وخفقت تهلّلاً. غير ان فاضل لم يتأثر من ذلك المشهد اصلاً لاسيّما وان اسامي تلك السواحل مثل كانّ (Cannes) وهيير (Hyères) وطولون كانت غريبة على أُذنيهِ ومع ذلك فبينما اوشكت الباخرة ان تصل شعر بتجدّد الحياة والرجاء في قلبهِ (سيأتي البقية)

شذرات

نبات كالشاي

روى البشير عن الكوكب العثماني انّ حضرة صاحب الدولة شاكر باشا مفتّش عموم الاناضول واحد اليوران الفخام اكتشف عشباً رآهُ في ضواحي الاناضول باحدى غابات توقات يُشبه الشاي منظرًا ولهُ خواصّ جمّة فضلاً عن انهُ مقوٍّ كثير الاغذاء. فارسل بكمّية منهُ الى نظارة الغابات والمعادن الجليلة لاجل تحليلهِ والوقوف على موادّهِ حتى اذا